3. الوحدة الثالثة: علوم ترتيل القرآن الكريم

تقديم الوحدة:

- تمهيد:

تجمع هذه الوحدة كل ما يتعلق بترتيل القرآن الكريم، والمقصود بالترتيل ما يتعلق بطريقة أدائه وما يتعلق بها من مباحث جانبية كمسألة الحفظ وعدم التحريف، والأحرف السبعة ونشأة القراءات.

وتتضمن الوحدة مباحث تتعلق بمناقشة الشبهات المرتبطة بالحفظ كما يدعيه الآن بعض الإمامية والحداثيين المسلمين وجمع غفير من المستشرقين.

- أهداف الوحدة

❖ التعرف على مكونات مفهوم الترتيل والقراءة والأحرف والاختيار ومعنى حفظ القرآن الكريم

❖ التعرف على أبرز الشبهات المثارة حول هذه القضايا ومكمن الخطأ فيها وكيفية ردها.

- أقسام الوحدة

3. 1. وصول القرآن الكريم
3. 2. حفظ القرآن الكريم
3. 3. أداء القرآن الكريم

- قراءات مقترحة

- ما تحتاجه لإتقان الوحدة

❖ فهم كيفية جمع القرآن والمراحل التي مر بها

❖ التعرف على بعض المفاهيم الأصولية كالنسخ

3.1. وصول القرآن الكريم

3.1.1. الإقراء النبوي للقرآن الكريم

لقد مر معنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرئ القرآن الصحابة ويحرص عليهم، وقد حرص عل تكوين جماعة من الصحابة اختصوا بالقراءة، ونبه على ذلك باقي الصحابة كي يتعلموا منهم ويفيدوا من وفير علمهم، من ذلك قوله: ((من سره أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد))[1]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم لأُبَي بن كعب: (("إن الله أمرني أن أقرأ عليك: {لم يكن الذين كفروا}"، قال: "وسماني؟"، قال: "نعم"، فبكى))[2]، وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: ((قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: "اقرأ علي القرآن"، قلت: "آقرأ عليك، وعليك أنزل؟!"، قال: "إني أحب أن أسمعه من غيري"))[3].

وتكون في طبقة الصحابة طبقة عرفت بالقراء، فعن أنس بن مالك، قال: ((كان شباب من الأنصار سبعين رجلا يسمون القراء، قال: كانوا يكونون في المسجد فإذا أمسوا انتحوا ناحية من المدينة، فيتدارسون ويصلون يحسب أهلوهم أنهم في المسجد، ويحسب أهل المسجد أنهم عند أهليهم، حتى إذا كانوا في وجه الصبح استعذبوا من الماء، واحتطبوا من الحطب، فجاءوا به فأسندوه إلى حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعثهم النبي صلى الله عليه وسلم جميعا، فأصيبوا يوم بئر معونة، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم على قتلتهم خمسة عشر يوما في صلاة الغداة))[4]، وهم الذين استشهدوا في سرية بئر معونة[5]، وحزن عليهم النبي صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا لم يُرَ منه قط[6].

---

(1) رواه أحمد بإسناد حسن: 211/1 رقم: 36

(2) رواه البخاري رقم: 4659

(3) رواه البخاري رقم: 5049.

(4) رواه أحمد 126/21–127 رقم: 13462،

(5)روى في البخاري عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه رعل، وذكوان، وعصية، وبنو لحيان، فزعموا أنهم قد أسلموا، واستمدوه على قومهم، «فأمدهم النبي صلى الله عليه وسلم بسبعين من الأنصار»، قال أنس: كنا نسميهم القراء، يحطبون بالنهار ويصلون بالليل، فانطلقوا بهم، حتى بلغوا بئر معونة، غدروا بهم وقتلوهم، فقنت شهرا يدعو على رعل، وذكوان، وبني لحيان، قال قتادة: وحدثنا أنس: أنهم قرءوا بهم قرآنا: ألا بلغوا عنا قومنا، بأنا قد لقينا ربنا، فرضي عنا وأرضانا، ثم رفع ذلك بعد

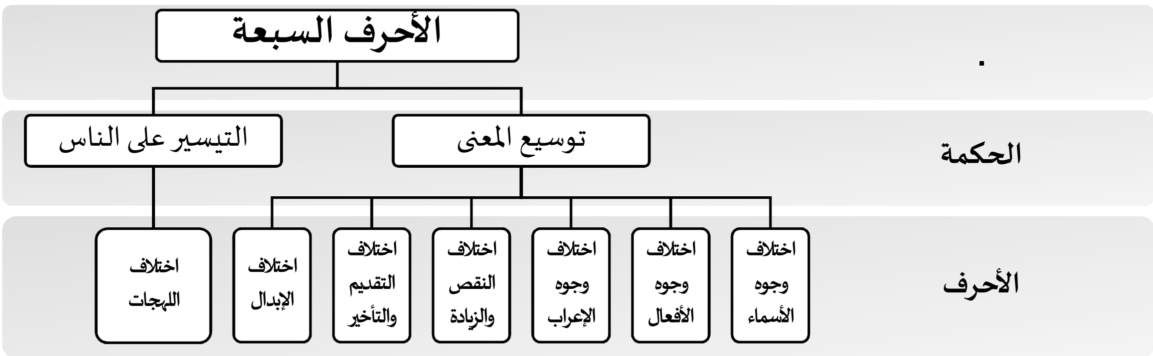
(6) روى البخاري 1300 عن أنس رضي الله عنه، قال: «قنت رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرا حين قتل القراء، فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حزن حزنا قط أشد منه»

3.1.2. الأحرف السبعة

اختلف العلماء في تحديد معنى الأحرف السبعة، والذي ارتضاه المحققون أن المراد بالحرف في قوله صلى الله عليه وسلم: ((أنزل القرآن على سبعة أحرف)) أنه الوجه من أوجه القراءة وبيانها هو:

الحرف الأول: اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع، وتذكير وتأنيث، ومن ذلك: {والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون} فقد قرئ {لأماناتهم} بالجمع، **والحرف الثاني**: اختلاف وجوه الأفعال من ماض ومضارع وأمر، ومن ذلك قوله تعالى: {فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا} فقد قرئ {ربنا بعِّد}، **والحرف الثالث**: اختلاف وجوه الإعراب، ومن ذلك قوله تعالى: {ولا يضار كاتب ولا شهيد}، فقد قرئت بضم الراء في {يضارُّ} وبفتحها {يضارَّ}، **والحرف الرابع**: الاختلاف بالنقص والزيادة ومن ذلك قوله تعالى: {وما خلق الذكر والأنثى} فقد قرئ {والذكر والأنثى}، **والحرف الخامس**: الاختلاف بالتقديم والتأخير ومن ذلك قوله تعالى: {وجاءت سكرة الموت بالحق} فقد قرئ {وجاءت سكرة الحق بالموت}، **والحرف السادس**: الاختلاف بالإبدال ومن ذلك قوله تعالى: {وانظر إلى العظام كيف ننشزها}، فقد قرئ {ننشرها}، **والحرف السابع**: اختلاف اللهجات كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم، والإظهار والإدغام.

ونلاحظ إذا حللنا هذا الرأي الحكمة من ذلك أنها توسيع المعاني والتيسير على الناس، كما المخطط التالي:



3.1.3. مفهوم القراءة وبعض أحكامها

فأما القراءة فهي بتعريف الإمام الزركشي رحمه الله: ((والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتبة الحروف أو كيفياتها من تخفيف وتثقيل وغيرها))، وعلم القراءات هو ((علم يعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية ، وطريق أدائها اتفاقا واختلافا ، مع عزو كل وجه إلى ناقله)) كما قال الشيخ عبدالفتاح القاضي رحمه الله.

وأما الاختيار فقال قال ابن الجزري رحمه الله: ((ونعتقد أن معنى إضافة كل حرف من حروف الاختلاف إلى من أضيف إليه من الصحابة وغيرهم، إنما هو من حيث إنه كان أضبط له وأكثر قراءة وإقراء به، وملازمة له، وميلا إليه، لا غير ذلك. وكذلك إضافة الحروف والقراءات إلى أئمة القراءة ورواتهم المراد بها أن ذلك القارئ وذلك الإمام اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة حسبما قرأ به، فآثره على غيره، وداوم عليه ولزمه حتى اشتهر وعرف به، وقصد فيه، وأخذ عنه ؛ فلذلك أضيف إليه دون غيره من القراء، وهذه الإضافة إضافة اختيار ودوام ولزوم لا إضافة اختراع ورأي واجتهاد)).

ومن الفوائد المهمة ما نبه إليه الإمام ابن الجزري في الفرق بين اختلاف القراء واختلاف الفقهاء، فقال: ((...إن اختلاف القراء كل حق وصواب نزل من عند الله وهو كلامه لا شك فيه، واختلاف الفقهاء اختلاف اجتهادي والحق في نفس الأمر فيه واحد، فكل مذهب بالنسبة إلى الآخر صواب يحتمل الخطأ، وكل قراءة بالنسبة إلى الأخرى حق وصواب في نفس الأمر نقطع بذلك ونؤمن به)).

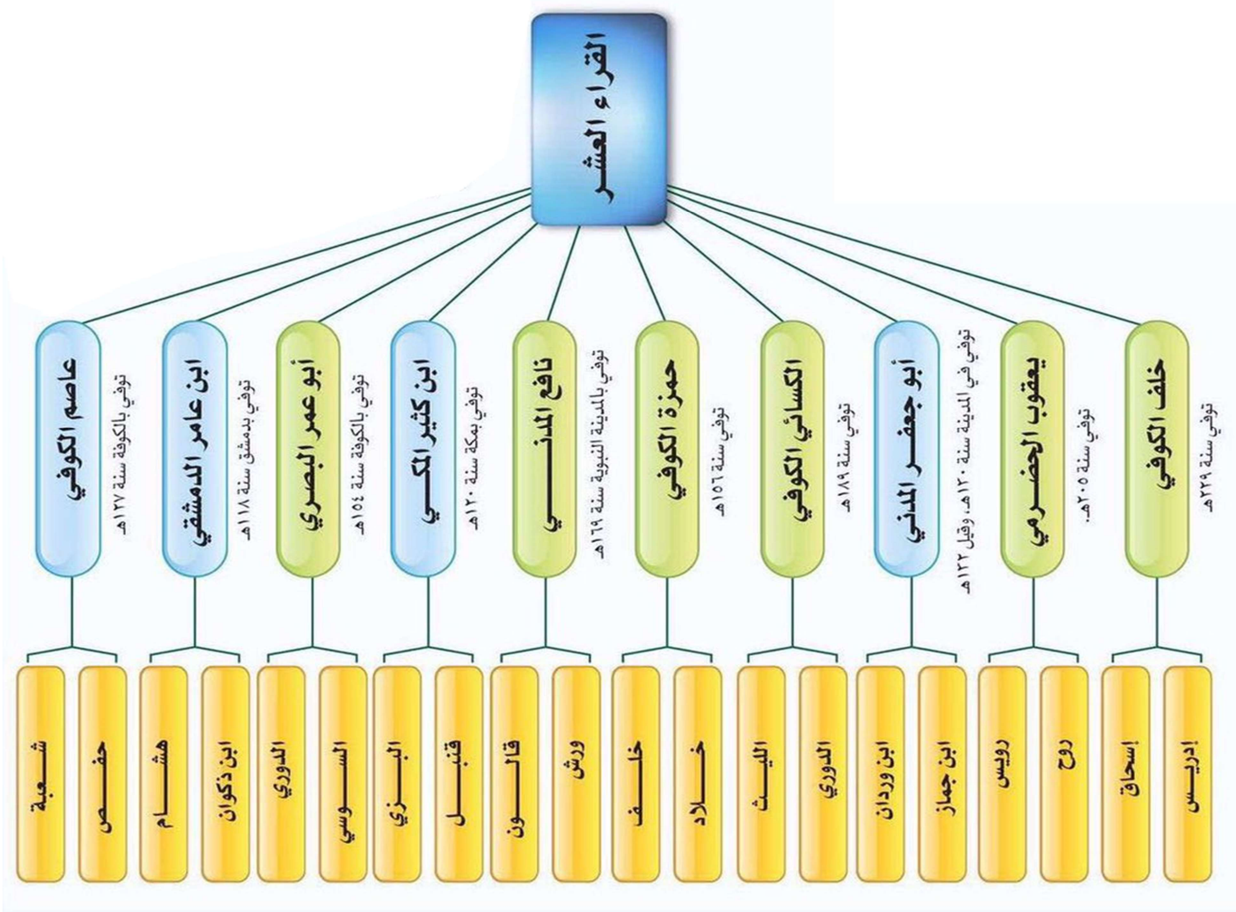
3.1.4. الفرق بين الأحرف السبعة والقراءات

يجيء الاشتباه عادة في هذه القضية من اشتهار القراءات السبعة بين المسلمين، ومتى علمنا أن القراءات أكثر من سبعة خف الإشكال، وسبب اشتهار هذه السبع هو ذيوع اختيار ابن مجاهد المقرئ في كتابه الشهير: "السبعة في القراءات"، بيد أن القراءات أكثر من ذلك والذي وصل إلينا متواترا عشرة وأوصلها بعض العلماء إلى أربع عشرة قراءة بينما الأحرف فهي سبعة بنص الحديث والخلاف في عدم جعله نصا شاذ.

وإذا اتضح لدينا معنى الأحرف ومعنى القراءة ومعنى الاختيار واتضح أين يكون وجه الحصر في السبعة وأين لا يكون فإننا نقول بأن أن قراءات الأئمة التي يقرأ بها الناس اليوم هي جزأ من الأحرف السبعة التي نزل بها القرءان ولكن هذه القراءات جميعها موافقة لخط مصحف من المصاحف العثمانية التي بعث بها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار بعد أن أجمع الصحابة عليها، فالحرف الواحد قد يندرج تحته عدة قراءات، وقد يكون قراءة واحدة فقط.

أما القـراء العشر فهم: 1.عبد الله بن عامر الدمشقي، 2.حمزة الكوفي، 3.الكسائي الكوفي، 4.نافع المدني، 5.عبدالله بن كثير المكي، 6.أبو عمرو البصري، 7.أبو جعفر المدني، 8.يعقوب الحضرمي البصري، 9.خلف البزار الكوفي، 10. عاصم الكوفي.

وهذه صورة توضحهم مع رواتهم:



3.2. حفظ القرآن الكريم

3.2.1. المقصود بحفظ القرآن

نقصد بحفظ القرآن الكريم **سلامته من تحريف العبارة في نقل نصوصه، وسلامته من ظهور سوء الفهم في تأويل نصوصه، وسلامته من ظهور سوء التطبيق في تنزيل نصوصه**، فهذه المستويات الثلاثة هي الأساس الذي يشكل مفهوم الحفظ.

ولا يعني ذلك أنه لم يوجد تحريف قط في نصوصه ولا سوء فهم في تأويلها ولا سوء التطبيق، فقد وجد هذا وتكرر في التاريخ بيد أنه لم يظهر بحيث يخفى الصواب على أغلب الأمة؛ فقد حاول مسيلمة مثلا أن يكتب قرآنا موازيا للقرآن المنزل على سيد الخلق فافتضح بين الخلق، وحاولت كثير من الطوائف المبتدعة تأويل القرآن بما يناسب أهواءهم فانبرى لهم الأئمة من أهل السنة فخاصموهم إلى السنة واللغة فخصموهم وما انتصروا إلا بقوة سلطان قاهر وليس بالحجة، وأما سوء التطبيق فكثير، ومن الناس من يبرر خطأه بفهم للقرآن يضعه بين يدي هواه فلا يكاد يذيعه حتى يصده أئمة حيه فضلا عن علماء أمته، ويدل على هذا المعنى السابق حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه، يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»، قال: "فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام، فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة"، رواه مسلم.

وهذه النتيجة هي نتيجة طبيعية لتعهد الله بحفظ كتابه، فالكتب السابقة حرفها من أوكل لهم حفظها، لكن كان الله لا يزال يبعث بالرسل لتعليم الناس الدين الصحيح، فكأن الحاجة لوجود كتاب مصحح ضئيلة مع وجود نبي معلم مصحح، لكن لما كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم آخر نبي ناسب أن يكون كتابه الذي جاء به محفوظا من أي تغيير يمسه ولو كان ذلك بسيطا، وتكفي نظرة عجلى على كتب القراءات وطريقة أداء القراء لكي يفهم المتعنت كيف يتعنى القارئ سبيل موافقته صلى الله عليه وسلم في كيفية الأداء والنطق، ويفهم حجم التفاصيل الدقيقة التي تُنقل مع كل آية ووقف ووصل.

3.2.2. الأدلة على حفظ القرآن الكريم

يمكن تلخيص الأدلة على سلامة القرآن وحفظه من التحريف بثلاثة أدلة كلية تنتظم تحتها أدلة جزئية عدة، وبيانها:

01- الدليل النقلي: قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[الحجر: 09]، قال الطبري مفسرا: ((يقول تعالى ذكره: (إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ) وهو القرآن (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) قال: وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطل مَّا ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه))، وفي تفسير الماتريدي:

(({وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} حتى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفيما وكل الحفظ إلى نفسه؛ لم يقدر أحد من الطاعنين مع كثرتهم منذ نزل موضع الطعن فيه، وذلك يدل أنه سماوي، وأنه محفوظ)).

ومن الحسن هنا نقل كلام مهم للإمام الرازي تحت هذه الآية إذ قال: ((إذا قلنا الكناية عائدة إلى القرآن فاختلفوا في أنه تعالى كيف يحفظ القرآن؟، قال بعضهم: حفظه بأن جعله معجزا مباينا لكلام البشر فعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان عنه لأنهم لو زادوا فيه أو نقصوا عنه لتغير نظم القرآن فيظهر لكل العقلاء أن هذا ليس من القرآن فصار كونه معجزا كإحاطة السور بالمدينة لأنه يحصنها ويحفظها، وقال آخرون: إنه تعالى صانه وحفظه من أن يقدر أحد من الخلق على معارضته، وقال آخرون: أعجز الخلق عن إبطاله وإفساده بأن قيض جماعة يحفظونه ويدرسونه ويشهرونه فيما بين الخلق إلى آخر بقاء التكليف، وقال آخرون: المراد بالحفظ هو أن أحدا لو حاول تغييره بحرف أو نقطة لقال له أهل الدنيا: هذا كذب وتغيير لكلام الله تعالى حتى إن الشيخ المهيب لو اتفق له لحن أو هفوة في حرف من كتاب الله تعالى لقال له كل الصبيان: أخطأت أيها الشيخ وصوابه كذا وكذا، فهذا هو المراد من قوله: وإنا له لحافظون، واعلم أنه لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ، فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير، إما في الكثير منه أو في القليل، وبقاء هذا الكتاب مصونا عن جميع جهات التحريف مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده من أعظم المعجزات وأيضا أخبر الله تعالى عن بقائه محفوظا عن التغيير والتحريف، وانقضى الآن قريبا من ستمائة سنة فكان هذا إخبارا عن الغيب، فكان ذلك أيضا معجزا قاهرا)).

02- **الدليل العقلي**: وهو التواتر الشفهي والكتابي للقرآن الكريم والذي ملأ كل الأماكن وكل الأزمان، وما من زمان يأتي إلا والحافظون له أكثر مما سبقهم، والمصاحف أكثر مما سبقها، ولم يحفظ هذا إلا سليما صحيحا، فلو أخطأ أحد في القراءة أو الكتابة لرد عليه الخطأ كثيرون، وهذا معنى التواتر وفائدته: الاستحالة على الاتفاق على الخطأ، فإن الفئة القليلة المجتمعة في مكان وزمان واحد قادرة على الحفاظ على الكذبة وإذاعتها، لكن اتفاق الجميع في أعصار مختلفة وأماكن متعددة على هذا أمر متعذر بل محال.

03- **الدليل الواقعي**: وهو تتبع الطريقين الشفهي والكتابي واختبارهما والتأكد من صحة وسلامة النص القرآني من التحريف، فتتبع الطريق الكتابي يقضي بجمع مصاحف مخطوطة ومن أزمان مختلفة وأماكن مختلفة ثم المقارنة بينها والنظر ما تكون النتيجة، وأما اختبار الطريق الشفهي فالسماع لقراء متغايرين من أماكن متعددة في رواية واحدة والنظر في الاختلاف بينهم ما هو حجمه.

لا شك أن الإجابة واضحة ولا تحتاج مزيدا من الكتابة.

3.2.3. القائلون بالتحريف وأقسامهم

وقد نقل عن بعض الناس الاعتقاد بوقوع التحريف في القرآن الكريم، وهم ثلاثة أصناف:

01- المدرسة الإخبارية من الفرقة الشيعية: وهي مدرسة ترى أن كل ما يصدر من الأئمة حجة غير قابل للتأويل، فجعلوا القرآن الكريم محرفا [إما تحريفا كليا أو أن الموجود منه ناقص، وسيظهر القرآن الكامل مع ظهور الإمام المهدي كما في عقيدتهم]، وسبب ذلك أنهم قرروا عقائد جعلوها أصولا ومخالفها كافر [مثل النص على إمامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأولاده] ولما لم يجدوها في القرآن ادعوا تحريفه بتواطؤ من الصحابة، ومن أبرز رؤساء هذه المدرسة نعمة الله الجزائري في كتابه الشهير: "فصل الخطاب في تحريف الكتاب"، وغيره.

02-بعض الحداثيين المعاصرين: والحداثي من يريد إصلاح حال العالم الإسلامي بتبني المنهج الغربي الأوربي في الإصلاح الذي ابتدأ بنقد الدين المسيحي الذي كان عائقا أمام النهضة الأوربية، وأثمرت الدراسات الأولى التي قامت بتأثير من المدرسة البروتستانتية بجعل الكتاب المقدس في عهديه القديم [التوراة] والجديد [الإنجيل] كتابا بشري التأليف وليس إلهيا، فجاء كثير من هؤلاء المثقفين فتبنوا النموذج الغربي في الإصلاح بحذافيره وحاولوا تطبيقه على القرآن الكريم وجعله كتابا تاريخيا قابلا للنقد وتطبيق مناهج النقد الأدبي عليه لاكتشاف الزيادات عليه، ومن هؤلاء الحداثيين: محمد أركون الجزائري وحمادي ذويب التونسي ونصر حامد أبوزيد المصري، ورغم أنهم يخفون التصريح بهذا إلا أن كتابتهم تدل عليه واضحا.

03- المستشرقون: والمستشرق هو غير المسلم المشتغل بدراسة الشرق [النسبة لأوربا هو العالم الإسلامي أساسا وغيره تبعا]، وتختلف الخلفيات التي ينطلق منها هؤلاء في دراستهم للإسلام، فمنهم من له خلفية تبشيرية يحاول من خلال أعماله صرف المسلمين إلى المسيحية أو الإلحاد، ومنهم من له خلفية استعمارية يمهد بدراسته لتذليل السبل كي تكون بلاد المسلمين ملحقة ببلده، وقليل منهم من له خلفية أكاديمية بحتة تدرس الإسلام بموضوعية، وغالب المستشرقين يعتقد القرآن محرفا وإن أبدى اندهاشه بمنهجية نقله وحفظه وتدوينه وتفسيره، وهذا يرجع لهيمنة الثقافة الكنسية عليهم.

3.2.4. الاعتراضات الواردة على كلية حفظ القرآن

نذكر هنا بعض الأفكار التي جعلها هؤلاء سبيلا للطعن في عقيدة المسلمين بحفظ القرآن الكريم:

01- **الاستدلال بالنسخ**: والنسخ إزالة حكم بحكم آخر في زمن التشريع، والنسخ يكون في الأحكام فقط لأنها أوامر ونواه ولا يمكن أن يكون في العقائد والقصص لأنها تكون كذبا، وهذا مقرر في موضعه من علم الأصول.

والقائلون باحتمالية تحريف القرآن ظنوا أن تغير الأحكام ونسخها دليل على أن الناس زادوا ونقصوا من القرآن بحسب أهوائهم، وهذا كلام مخالف للواقع من جهتين: **أولها** أن شرط النسخ وقوعه في زمن التشريع لا بعده، فبوفاة النبي صلى الله عليه وسلم انتهى النسخ ولم يدعى بعد ذلك، فأين تحريف القرآن في الأمر؟، **والوجه الثاني** أن مثل هذا الاحتمال كان سببا كافيا لتشنيع الكفار على المسلمين لكنه لم يقع، فادعوا في القرآن أنه شعر وأنه كلام كهان ولم يدعى تحريفه.

02- **تعدد القراءات**: يرى بعض الناس أن تعدد القراءات القرآنية برهان على وجود تحريف للقرآن من الزمن الأول، وإلا كانت قراءة واحدة كافية، ويغفل هذا القائل أن القراءات كلها قرآن صحيح النسبة إلى الله تعالى، ولا يمكن أن يكون ما يثري المعنى ويزيد من توسعه لعجز اللغة عن البيان دليلا على وقوع التحريف، فالقراءة كانت تتلى وتسمع من فم النبي صلى الله عليه وسلم وبإقراره، فلو كانت تحريفا لما أقرها، والقول بهذا نوع من التجني على البحث العلمي ومجرد اتهام بدون دليل ولا تفكر.

03- **تحريف المصاحف في زمن عثمان رضي الله عنه**: مر بنا أنه رضي الله عنه أمر بتحريق المصاحف ما عدا المصاحف التي كتبت تحت إشراف لجنة زيد بن ثابت رضي الله عنه، وذلك كي يجنب الناس مشاكل الكتابة، فجعل بعض المغرضين من هذه القصة سببا في القول بتحريف القرآن باعتبار أن "السلطة الرسمية" فرضت بالقوة مصحفها الذي يتلاءم مع توجهاتها الخاصة وأن الناس رضخوا لهذا الأمر تحت سلطة القهر.

ويبدو لأول وهلة أن هذا التصور مُغرق في الخيال، ولا يستند إلا لإسقاط الفعل اليهودي والمسيحي مع كتبهما المقدسة على القرآن، فلو تصورنا وقوع هذا في زمن عثمان رضي الله عنه لتصورنا وجود نسخ عدة من القرآن بمجرد تولي أي خليفة للحكم فضلا عن تغير الدولة كليا ولم يحدث هذا.

ثم إن سر قوة القرآن إنما كان في التواتر في النقل الشفهي الذي انتهجه النبي صلى الله عليه وسلم من أول يوم نزل فيه الوحي، وإنما كانت الكتابة توثيقا ثانويا مقارنة مع الانتشار الكبير للحفظ، فلو فرضت الدولة نسختها من القرآن لبقيت النسخة الشفهية متداولة وهذا لم يحدث أبدا.